دراسات أفريقية

العدد الأول

رجب ١٤٠٥هـ
أبريل ١٩٨٥م

مجلة بحوث نصف سنوية

- الإسلام والتجانس الاجتماعي في افريقيا
  البروفسر مدثر عبدالرحيم
- الأصول التاريخية للعلاقات العربية الأفريقية بغرب افريقية
  البروفسر عثمان سيد أحمد اسماعيل
- الصراع بين القوى الإسلامية والمسيحية في أثيوبيا إلى نهاية القرن التاسع عشر
  الأستاذ - الامين عبدالكريم
- انتشار اللغة العربية في بلاد غرب أفريقية عبر التاريخ
  الدكتور السر سيد أحمد العراق
- التبشير والسياسة التعليمية في مناطق جبال النوبة (١٩١٩ - ١٩٥٦)
  الدكتور كمال عثمان صالح
- الأبحاث الأثرية وما تلقيه من أضواء على علاقة الجزيرة العربية بالسودان في زمن الخلفاء الراشدين
  الدكتور أحمد محمد علي حاكم

المركز العربي للدراسات الأفريقية والشرق الأوسط

حياة
الحاج عمر الفوتى

الدكتور عمر عبدالماجد

كانت حياة وفكر الحاج عمر من أبرز السمات الدالة على انتشار الإسلام وتغلغله فى السودان الغربى اذ سيطرت على مسرح الأحداث فى هذه المنطقة طوال سنوات النصف الأول من القرن التاسع عشر الميلادى . وقد كان لحركته أكبر الأثر فى أجتذاب الكثير من المسلمين فى تلك المنطقة ، واعدادهم للجهاد فى جبهات عديدة وتعبئتهم ضد الفساد الذى كان مستشريا فى دويلات المنطقة ، وضد الجهالة والدجل وممارسات ديانات المنطقة الارواحية الافريقية التقليدية التى باتت تهدد الإسلام فى السودان الغربى ، علاوة على التعبئة ضد القـــوى الاستعمارية التى كانت تتربص بالغرب الأفريقى من معقلها فى مستعمرتى سانت لويس الفرنسية وسير اليون البريطانية .

ولد عمر بن سعيد بن عثمان الفوتى بقرية هلموار بمنطقة فوتا تورو السنغالية حوالى عام ١٧٩٧م . فى اسرة تنتمى الى طبقة التورب الاستقراطية التى اطاحت باسرة الدنيانكى الحاكمة فى منطقة الفوتا ، قبل عشرين عاما تقريبا من مولده .

كان عمر بن سعيد الطفل الرابع فى اسرة الفقية سعيد بن عثمان وزوجته سوكنه آدماه تلك السيدة الورعة التى كان يحلو لابنها عمر الترديد طول حياته بانها لم تكن كغيرها من نساء فوتا تورو بل كانت أمرأة مطيعة لربها ولزوجها(١).

ولد عمر بن سعيد وترعرع فى هذه الاسرة وفى هذا الوسط وتلقى أول دروسه فى الدين الإسلامى على يد والده الذى رأى فيه امارات الصلاح والنبوغ المبكر الشيء الذى حدا به أن يقول فى مناسبات عديدة لابنائه الآخرين : دعوا عمر وشأنه .. فسيكون له شأن عظيم باذن الله .

وتحدثنا بعض المخطوطات العربية بالمكتبة الوطنية بباريس بان الامام عبدالقادر سلطان امامية فوتا السنغالية فى اخر يات القرن الثامن عشر والذى كان رجل علم وصلاح ، قد بشر الفقيه سعيد بن عثمان بان زوجته ستضع طفلا ذكراً ستطبق شهرته الآفاق(٢). ويروى عمر بن سعيد ان والده شرع مرة فى بناء مسجد بفناء داره الا ان بعضا من أهل القرية قاموا بهدمه بحجة أن بالقرية مسجد يتسع لجميع المصلين بها . فتطور الأمر الى شجار وتفاقم . وعندما رفع الأمر الى الامام يوسف الحاكم حينذاك ومثل الطرفان امامه ، وكنت يومها طفلا

برفقة والدى . فقال الامام للفريقين :— مافائدة هذا النزاع؟ عودوا الى أهليكم وعيشوا فى سلام فيما بينكم وارعوا هذا الطفل فانه سيكون قائدكم فى يوم من الايام (٤).

على الرغم من الصبغة الفلكورلوية لهذا القصص الا انه يكشف عن النبوغ المبكر والروح القيادية التى كان يتصف بها عمر بن سعيد منذ حداثة سنه مما جعل بعض الناس يتنبأون له بمستقبل عظيم .

وعمر بن سعيد كغيره من الكثيرين من تلاميذ المدارس القرآنية فى السودان الغربى فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر غادر اسرته بعد أن حفظ القرآن وتلقى ماتيسر له من علوم التوحيد والفقه والتفسير على يد والده ومشائخ منطقة فوتا تورو، وهو بعد فى العاشرة من عمره . وسافر الى موريتانيا للاستزادة من المعرفة وطلباً للعلم لدى مشائخها . ويقال انه سلك الطريقة التيجانية لاول مرة خلال هذه الفترة المبكرة من حياته ، على الشيخ مولود فال من أولاد على بالطرازا بموريتانيا . بعد ذلك قفل راجعاً الى بلاده حيث مكث اربعة أعوام (١٨١٩—١٨٢٢). اشتغل خلالها بتدريس علوم القرآن والحديث(٥). فتقاطرت عليه جموع الطلاب من كافة ارجاء السودان الغربى بعد ان اخذت شهرته تذيع فى تلك المنطقة . فالتقى خلال هذه الفترة بالشيخ عبدالكريم بن أحمد النقيل الذى قدم فى زيارة الى فوتا السنغالية من فوتا جالون وأخذ على يديه الطريقة التيجانية ، للمرة الثانية ورافقه الى الفوتا جالون متتلمذاً عليه .

كانت هذه الفترة بالنسبة لعمر بن سعيد فترة دخول جدى فى عالم التصوف توفر خلالها على الاطلاع على العديد من مؤلفات كبار المتصوفة ، ورافق خلالها الشيخ عبدالكريم بن النقيل فى حله وترحاله فى الأرجاء المختلفة لمنطقة الفوتا جالون ، وتوثقت صلاتهما الى درجة أن الاخير دعاه الى مرافقته لأداء فريضة الحج . وقد وافق « النا » عمر بن سعيد الذى اصبح يحمل هذا اللقب العلمى الصوفى على العرض الذى قدمه له شيخه ، غير انه استأذنه فى العودة الى أهله فى فوتا تزرو لأخذ الاذن من والديه للقيام بهذه الرحلة الشاقة التى قد تمتد الى سنين طويلة يقطعها معظم حجيج الغرب الافريقى حينذاك سيراً على الاقدام وما يستتبع ذلك من التعرض لشتى صنوف المخاطر والمهالك فى طرق الحج الممتدة من أقصى الغرب الافريقى الى موانىء عيذاب وسواكن وغيرها على البحر الأحمر .

رحـــلته للاراضى المقدســـة :

غادر « الفا » عمر بن سعيد فوتا جالون الى فوتا تورو على أمل اللحاق بشيخه فى مدينة « الحمد لله » عاصمة دولة ماسينا بجمهورية مالى الحديثة . وبعد ان مكث الفا عمر السنيغال عاما كاملا غادرها برفقة زوجته واخيه عليو فى نهاية شهر ربيع الاول عام ١٢٤١ هجرية – ابريل ١٨٢٦م الى مدينة الحمد لله التى بلغها بعد وفاة الشيخ عبدالكريم بن أحمد النقيل واقام بها شهراً فى ضيافة شيخو أحمدو امير المؤمنين بدولة مسيينا الثيوقراطية . ثم غادرها بعد ذلك الى مدينة سكوتو عاصمة امبراطورية الفولانى ، ونزل فى ضيافة أمير المؤمنين الشيخ محمد بلو حيث امضى سبعة أشهر غادرها بعد ذلك الى مدينة غاندو ضيفا على الشيخ عبدالله بن فودى لمدة تقارب الشهرين .

كانت هذه فترة عامة من حياة ألفا عمر بن سعيد تعرف خلالها على افكار قادة الجهاد فى امبراطورية الفولانى ، خاصة افكار الشيخ عثمان بن فودى ومحمد بلو وعبدالله بن فودى حول الجهاد فى سبيل الله . وقد اتاحت له فترة بقائه فى امبراطورية سكوتو الاطلاع على مؤلفات الشيخ عثمان بن فودى مثل : بيان وجوب الهجرة على العباد ، حصن الافهام من جيوش الأوهام ، واحياء السنة واخماد البدع ، وسراج الاخوان كما اتاحت له فرصة الوقوف على الطبيعة على تجربة امبراطورية سوكوتو فى الجهاد فى سبيل الله واقامة دولة ثيوقراطية ، الشيء الذى كان له أقوى الأثر فى فكرة السياسى والدينى .

بعد هذه الفترة التى أفاد منها الفا عمر بن سعيد كثيراً فى تخصيب فكرة بافكار كبار المجاهدين فى السودان الغربى غادر مدينة غاندو متجها الى فزان فى الشمال الشرقى ومنها الى مصر التى وصلها بالتقريب فى شهر جماد الاخرة ١٢٤٢ هجرية يوليو ١٨٢٧ . (٦). ولا نعلم شيئا على وجه الدقة عن المخاطر والصعوبات التى واجهها الفا عمر بن سعيد اثناء رحلته من غرب افريقيا الى مصر فى طريقه الى الاراضى المقدســـة ، غير أن الرحالة الفرنسى ماج يعتقد بان الفا عمر لم يتعرض لصعوبات تذكر وذلك نظراً للمهابة والمكانة المرموقة التى كان يحظى بها رجال الدين فى السودان الغربى والاوسط حينذاك على وجه الخصوص وفى العالم الإسلامى بصورة عامة (٥).

تأكيداً لما تقدم فقد لقى الفا عمر بن سعيد فى مصر الكثير من حسن الاستقبال والاكرام من المواطن المصرى المدعو محمد المغربى والذى زوده فى نهاية اقامته بارض مصر بخطابين أحدهما الى ربان السفينة التى اقلته الى ميناء جدة

والاخر الى سليمان درقال وكيله بهذه المدينة . ويخبرنا الفا عمر بن سعيد بالرعاية الشديدة التى أفردها له سليمان درقال فى جدة الشيء الذى سهل عليه مهمة زيارته للاراضى المقدسة والاقامة بها مايربو على الثلاثة اعوام . وقد اعتبرت مؤخراً السهولة التى تمت بها رحلة الفا عمر بن سعيد الى الاراضى المقدسة احدى كراماته ودليلا على صلاحه (٦).

بعد مضى تسعة أشهر على وصوله الى المدينة المنورة عام ١٨٢٨م وضعت زوجته بنتا فاختار لها اسم فاطمة تيمنا بالسيدة فاطمة الزهراء كريمة الرسول محمد عليه افضل الصلاة وازكى السلام . بعد ذلك اصطحب عمر بن سعيد الذى أكتسب حينذاك لقب الحاج بعد أداء الفريضة اصطحب أهله وقفل راجعاً من مكة حيث التقى بسيدى ـ محمد الغالى خليفة التيجانية وممثل السيد احمد التيجانى بالحجاز ، وقد كان هذا اللقاء نقطة تحول كبرى فى حياة الحاج عمر ابن سعيد أخذ خلاله الطريقة التيجانية للمرة الثالثة على يد سيدى محمد الغالى واعتبر ذلك بمثابة انتمائه الحقيقى للطريقة التيجانية ، كما تلقى ابانه دروسا حقيقية على يد سيدى محمد الغالى متتلمذاً عليه طوال عامين كاملين ولازمه ليل نهار فى خضوع تام وقهر للنفس واذلال لها(٧).

بعد اداء فريضة الحج للمرة الثانية قرر الحاج عمر زيارة بيت المقدس . فاتجه الى مصر ومنها الى مدينة القدس ثم غادرها الى دمشق حيث مكث شهرين(٨) عاد بعدهما الى مكة ليلتحق بسيدى محمد الغالى طلباً للمزيد من الغوص فى اسرار الطريقة التجانية ، وطمعا فى الفوز بالبركة . وقد أهداه سيدى محمد الغالى كتاب جواهر المعانى للسيد أحمد بن محمد المختار التيجانى مؤسس الطريقة التيجانية كما منحه درجة « مقدم » للطريقة فى السودان الغربى(٩). وذلك عرفانا منه بسعة وصلاح تلميذه وحفزا له لورود النبع الاصلى الذى استقى منه هو نفسه ، وقد كان ذلك بمثابة اجازة للحاج عمر بن سعيد فى الطريقة التيجانية غير أن ذلك لم يكن كافياً لاطفاء غليل هذا الاخير الذى كان يبحث كما قال علّيوتيام فى قصيدته آنفة الذكر عن المعين الذى لاينضب.... أى البركة(١٠).

وبعد فترة من الانتظار امتدت طوال السنوات التى أمضاها الحاج عمر بالاراضى المقدسة منحه شيخه اسرار الطريقة وبركة السيد أحمد التيجانى وخلع عليه لقب خليفة عموم التيجانية فى غرب أفريقيا ثم أمره بالعودة الى وطنه لكنس جميع البلدان من أدران الجهالة والشرك (١١) .

كان هذا التكليف مسئولية كبرى القاها سيدى محمد الغالى على عاتق الحاج

عمر بن سعيد الفوتى التجانى ظلت تشكل طوال حياته المرتكز الاساسى لافكاره السياسية وتفسر الى حدود كبير مواقفه وتحركاته ليس فقط تجاه القبائل الوثنية فى الغرب الافريقى انما ايضا تجاه القبائل المسلمة التى لاتعتنق الطريقة التيجانية .

وفى هذا المضمار نلاحظ ان الحاج عمر خلافا للشيخ عثمان بن فودى مثلا كانت له منذ البدء افكار سياسية محددة . فقد كان يعى جيداً ابعاد الرسالة الدينية التى يضطلع بها ونوع المجتمع الذى عقد العزم على انشائه وذلك قبل وصوله الى غرب افريقيا . وقد وجد فى التيجانية الايديولوجية التى يبنى على اراضيها الاصلاح الذى كان ينشده .

فى بلاط الكانمى ويلو وشيخو احمدو

لم تطل بعد ذلك اقامة الحاج عمر بالاراضى المقدسة اذ غادر المدينة المنورة الى مصر ومنها الى فزان واخيراً الى بونو التى وصلها عام ١٨٣٣م. حيث استضافه الشيخ محمد الامين الكانى نمى سلطان كانم وزوجه ابنته مرياتو التى انجب منها ابنة عجيب الذى صار فيما بعد رئيسا لمدينة دنجيرى . بعد ذلك سافر الحاج عمر الى مدينة كانو بلاد الهوسا حيث ترك زوجته وواصل سيره الى مدينة سكوتو لزيارة السلطان محمد بلو . ويقال أن السلطان محمد بلو قد تردد كثيراً قبل السماح للحاج عمر بدخول مدينة سكوتو(١٢). وذلك ربما خوفا من افكاره التيجانية التى اخذ يبثها اثناء سيره فى السودان الغربى، ومن هجومه الكاسح على رجال الدين فى غرب أفريقيا ووصفه اياهم بالجهل والنفاق وعلى الطريقة القادرية التى كان يعتنقها السلطان بلو نفسه واتهامها بالتساهل فى أمور الدين . ومهما يكن من أمر فقد قام السلطان بلو باستقباله والاهتمام به وأجزل له الكثير من العطايا واخيراً زوجه ابنته مريم التى انجب منها ابنه أحمد الملقب الغربى والذى أصبح يعرف فيما بعد باحمد شيخو سلطان مدينة سقو

أمضى الحاج عمر خمسة اعوام فى بلاط السلطان محمد بلو كانت بمثابة فترة استجمام من عناء رحلته الشاقة كما كانت فى الوقت ذاته فترة تفرغ فيها للدعوة للطريقة التيجانية ومقارعة افكار الطريقة القادرية ودحضها فى واحد من أهم معاقلها فى الغرب الافريقى ، الا وهو مدينة سكوتو عاصمة امبراطورية الفولانى ويقال أن السلطان محمد بلو نفسه قد وقع تحت تأثير القوى الداعية التكرورى الشيء الذى جعله يتحول من الطريقة القادرية الى الطريقة التيجانية . وليس ذلك فحسب بل يخبرنا أحمدو همباتى بان الحاج عمر قد حصل على وعد مكتوب من السلطان محمد بلو باستخلافه من بعده سلطانا على امبراطورية سكوتو .

غير انه بوفاة السلطان بلو فى الخامس والعشرين من أكتوبر ١٨٣٧ قرر مجلس اعيان امبراطورية سكوتو مبايعة الشيخ عتيق بن الشيخ عثمان ابن فودى .. سلطانا خلفا لاخيه السلطان محمد بلو . (١٤). ويعتقد أحمد وهمباتى بما أن قرار مجلس أعيان سكوتو قد جاء مخيبا لامال الحاج عمر مما جعله يغادر امبراطورية سكوتو فى مطلع عام ١٨٣٨ متجها الى مدينة الحمد لله فى موكب ضخم من الاتباع والمريدين والطلاب الذين استطاع اجتذابهم اثناء بقائه بحاضرة امبراطورية الفولانى .

عند وصوله الى مدينة الحمد لله استقبله شيخو أحمدو استقبالا حسنا على الرغم من محاولات الشيخ أحمد البكاى خليفة الطريقة القادرية بالسودان الغربى حينذاك افاد مابينهما . فقد كان هذا الاخير يشعر بالكثير من الغيرة التى تصل الى حد البغض تجاه الحاج عمر وذلك نظراً للانتشار السريع الذى أخذت تسجله الطريقة التيجانية التى يدعو لها على حساب الطريقة القادرية المتجذرة فى تربة السودان منذ اخريات القرن . السادس عشر الميلادى (١٥).

الســـيرة الكبرى :ـ

غادر الحاج عمر مدينة الحمد لله لمدينة سقو عاصمة مملكة البمبارا حيث أخذ يدعو اهليها الى الاسلام . فافلح فى استمالة عدد كبير منهم وادخالهم فى الديانة المحمدية الشيء الذى اوغر ضده صدر مليكها تيغولو فامر بحبسه ووضعه فى الحديد (١٦). ويخبرنا عليو تيام فى أحدى قصائده بان تيغلو قد أمر الحاج عمر بعد ان اطلق سراحه بان يغادر فوراً مملكة البمبارا حفاظا على رعيته من المد الاسلامى الذى اخذ يتهددها من جراء نشاط الحاج عمر ومقدرته الفائقة على الاقناع . غير انه يبدو ان الامر كان أكبر مما وصفه عليوتيام فى قصيدته ، اذ ان الكراهية التى يحملها الحاج عمر تجاه الطبقة الحاكمة فى مملكة البمبارا قد لعبت دورا هاما فى سياسته وحروبه فى المستقبل . ويذهب سانت مارتن الى ما ذهبنا اليه فيؤكد قائلا بان المعاملة القاسية التى لقيها الحاج عمر من ملك المبمبارا قد زادت من كراهيته للكفار بصفة عامة (١٧). من هنا توجه الحاج عمر الى فوتا جالون التى كانت تشده اليها روابط عاطفية اذ أنها الأرض التى شهدت دخوله الفعلى فى الطريقة التيجانية ، كما ان له بها الكثيرين من الاتباع والمعارف مما سيمكنه من اتخاذها نقطة انطلاق لحركته التيجانية . ويقول الرحالة الفرنسى ماج فى كتابه رحلة فى السودان الغربى الذى صدر فى باريس عام ١٨٦٨م الحاج عمر قد تخير فوتا جالون دون موطنه الاصلى لانه يعلم بان الانبياء مضطهدون

فى بلدانهم وبهذا اراد ان يكتسب قوته العسكرية ونفوذه الدينى خارج وطنه حتى يتسنى له العودة الى فوتا السنغالية فاتحا مظفراً (١٨). وعلى الرغم من أن الرأى الذى الذى ذهب اليه ماج اجتهاد مشروع الا اننا نعتقد بان الدافع الحقيقى لذلك هو وجود اتباع ومريدين له فى فوتا جالون فضلا عن كون فوتا جالون لاتبعد كثيراً من أماكن وجود تجار السلاح الأوربيين على الساحل كما أن بها الكثير من مناجم الذهب الشىء الذى سيمنحه القوة الشرائية اذا ما احسن استغلاله ومقايضته بما يحتاجه من سلاح نارى ومن بارود.

فى فوتا جالون التى وصلها عام ١٨٤٠ استقبله حاكمها الامام ابوبكر استقبالا حسنا وسمح له باقامة زاويته فى قرية دبجنكو حيث مكث بها اربعة اعوام اصبحت خلالها زاويته مصدر اشعاع للطريقة التيجانية فزادت شهرته ، الشىء الذى جعل الناس يتوافدون عليه من كافة ارجاء المنطقة طلبا للتبرك واخذا للطريقة التيجانية على يده كما تقاطرت عليه جموع طلاب المعرفة من مختلف قبائل السودان الغربى خاصة من الفولانى والتكرور والديالونكى . فى هذه الفترة اخذ الحاج عمر فى شراء السلاح النارى من التجار البريطانيين بسيراليون وريوثنز وريوبوتزو على الساحل . لهذا اخذت زاوية الحاج عمر تكتسب وبسرعة فائقة طابع الثكنة العسكرية يتلقى فيها الطلاب تدريبات على حمل السلاح كما يتسلحون بفكر واوراد التيجانية بالاضافة الى البنادق ... البريطانية . وقد كان الحاج عمر يردد لتلاميذه بان الرسول عليه افضل الصلاة وازكى السلام قال للسيد أحمد التيجانى انك من الناجحين وان احبابك من الناجحين ... فانت حبيبى واحبابك احبائى وكل من أخذ وردك سيحرم جسده على النار (١٩).

هذا النشاط الدينى العسكرى الذى جعل من زاوية الحاج عمر اشبه ماتكون بخلية النحل ، وهذه القوة العسكرية المتنامية قد استقطبت له تعاطف قبيلة الديالونكى التى رأت فيه الحليف الامثل للاخذ بثارها من قبيلة الفولا التى اطاحت بها واستولت على السلطة فى امامية الفوتا جالون(٢٠).

بهذه الطريقة كون الحاج عمر نواة جيشه الذى كان معظمه من مواطنى فوتا السنغالية الذين هرعوا للقائه بفوتا جالون عندما علموا بعودته من الاراضى المقدسة .

لقد تهيأت بذلك كافة الاسباب للجهاد فى سبيل الله فخرج الحاج عمر عام ١٨٤٤م على رأس جيش من طلابه ومريديه مشحونا بطاقة روحية هائلة ومهيأ للفوز باحدى الحسنيين . فاتجه نحو الشمال الغربى الى قرية جادو بين نهرى جامبيا

وربوجراند . ويبدو انه لقى استقبالا حسنا من أهالى القرية مماجعله يصرف النظر عن قتالهم ويؤثر البقاء بينهم عاما كاملا كرسه لنشر الاسلام بالتى هى أحسن بين أهالى القرى المجاورة ولبث الطريقة التيجانية بينهم . بعد ذلك اتجه شرقا الى منطقة بوندو بالسنغال واستطاع ان يدخل معظم سكان المنطقة فى الطريقة التيجانية . ويحدثنا LECHATELIER فى كتابه الاسلام فى غرب افريقيا الصادر فى باريس عام ١٨٩٩م بان سكان هذه المنطقة قد أصبحوا من أكثر اتباع الحاج عمر ايمانا بالطريقة التيجانية بل وتطرفا لها ، غير أن الحاج عمر لم يشأ البقاء فى منطقة بوندو أكثر من ذلك فواصل مسيرته الى فوتا تورو لزيارة والديه اللذين اقعدهما الكبر عن اللحاق به بفوتا جالون ، كما فعل الكثيرون من ابناء التكرور مما أوردنا ذكره من قبل . وعلى الرغم من انه استبقى بعضا من طلابه ومريديه لمرافقته الى فوتا السنغالية فقد امر معظم من كان معه بالعودة الى دبجونكو لانتظاره بها ولمواصلة تدريباتهم العسكرية استعداداً للجهاد فى سبيل الله . ثم اتجه غربا الى منطقة كايور واستطاع ان يدخل فى الطريقة التيجانية اعداداً كبيرة من ابناء قبيلة الولوف التى تسكن ذلك الجزء من السنغال بالرغم من تغلغل الطريقة القادرية منذ ازمان بعيدة . ثم اتجه الى مدينة بودور التى لاتبعد كثيراً عن مصب نهر السنغال والتقى فى أواخر اغسطس عام ١٨٦٨٤م بالسيد كاى CAILLE الحاكم الفرنسى بالانابة على مستعمرة سانت لويس وعقد معه محادثات طمأنه فيها على حسن نواياه واكد له عزمه على اشاعة الامن والاستقرار فى السنغال تأمينا للتبادل التجارى بين السكان الاصليين فى الداخل ومستعمرة سانت لويس ، كما أكد عزمه على اعلان الجهاد فى سبيل الله لادخال القبائل الوثنية فى الاسلام . وقد خلق الحاج عمر انطباعا حسنا لدى السيد كاى لاسيما وانه قد وعده بعدم تعريض المنطقة الواقعة تحت السيطرة الفرنسية الى خطر . وقد رأى السيد كاى فى مفاوضة التكرورى الشخصية القوية التى تبحث عنها سلطات سان لويس لتحقيق احلامها فى ترسيخ دعائم السلام على طول مجرى نهر السنغال الشىء الذى سيفضى الى ازدهار اقتصادى فى المستعمرة الفرنسية بعد أن اضرت هجمات القبائل كثيرا بتدفق التبادل التجارى بين الداخل والساحل . ولنفس هذه الاسباب مجتمعة كان الحاج عمر موضع حفاوة من السيد كاى ومن التجار الفرنسيين بسانت لويس الذين قدموا له الكثير من الهدايا . من هناك توجه الحاج عمر الى قرية هلوار .. مسقط رأسه بمنطقة فوتا تورو وامضى بها أسبوعا ثم غادرها ليجوب كافة ارجاء منطقة الفوتا السنغالية دعوة للناس للانخراط فى جيشه والجهاد فى سبيل الله .

ويحدثنا عليو تيام بان معظم التكرور بفوتا تورو قد استجابوا الى دعوة الحاج عمر . غير ان الحفاوة التى وجدها الحاج عمر فى منطقة سانت لويس ولدى افراد قبيلته فى فوتا تورو لم يجدها لدى الامام محمد حاكم امامية فوتا السنغالية ، اذ أن هذا الاخير قد انزعج للقاء الذى تم بين حاكم سانت لويس والحاج عمر اذ أن العلاقات كانت سيئة بين مستعمرة سانت لويس وامامية فوتا تورو بسبب عرقلة سكان فوتا لطرق التجارة كما أن اجتذاب الحاج عمر لشباب التكرور ودفعهم الى الجهرة اليه قد أوغر صدر الامام محمد الذى رأى فى ذلك افراغا لدولته من الشباب القادرين على حمل السلاح . هذا فضلا عن ان الحاج عمر قد بات يمثل خطراً حقيقياً عليه وعلى امامية فوتا تورو المتحدة بعد هذا الاعراض الذى لقيه الحاج عمر من السلطة الحاكمة فى وطنه لم يشأ البقاء طويلا فى فوتا تورو فغادرها الى مدينة باكل صعودا لمجرى نهر السنغال والتى بلغها فى مطلع عام ١٨٤٧م حيث التقى بالسيد هيكار قائد الحامية الفرنسية الموجودة بالمدينة لحماية المصالح التجارية لفرنسا فى منطقة وسط نهر السنغال . ويفيد السيد هيكار فى تقريره لحكومة سانت لويس بان الحاج عمر أكد له بانه سيجيء مرة أخرى لمنطقة السنغال لقتال الكفار(٢٠). واصل الحاج عمر مسيرته شرقا محاذيا لمجرى نهر السنغال فى جميع كبير من الطلاب والاتباع والمريدين قال عنهم عليو تيام بانهم اناس هجروا الام والاب واختاروا التوجه نحو جنات الخلد(٢١) ويخبرنا LECHATLIA بان . الحاج عمر قد احرق العديد من قرى الوثنين التى مر عليها فى طريق عودته الى ديجونكو وذلك ربما لانه لم يجد لدى اهلها استجابة لما دعاهم اليه أو انه اراد ان يضع مرافقيه فى محك عملى ويهيؤهم لمسير الجهاد الكبرى ويحسن من أوضاعهم المعيشية بما يكسبونه من غنائم مماسيكون له أثر فى رفع روحهم المعنوية .

لم تعد ديجونكو المكان المناسب للحاج عمر الذى ازداد عدد اتباعه بصورة ضاقت معها زاويته كما ان قرب قرية ديجونكو من مدينة تمبو حاضرة امامية الفوتا جالون كان يجد كثيرا من حرية الحركة التى كان يتطلع اليها الحاج عمر ويجعله تحت مراقبة مستمرة من السلطات المركزية والاقليمية بالامامية التى كان يدفع لها ضريبة سنوية باهظة رغم ذلك فقد مكث الحاج عمر بديجونكو بعد عودته من فوتا تورو لمدة ثمانية عشر شهراً كرسها لنشر الطريقة التيجانية التى عمت بفضله كافة ارجاء منطقة فوتا جالون واعتنقها جميع سكان المنطقة عدا افراد اسرة الألفية الحاكمة التى ظلت على ولائها للطريقة القادرية ولعله لهذا السبب كانت الاسرة الحاكمة فى فوتا جالون تنظر بعدم الارتياح لنشاطات الحاج عمر

فى بث الافكار التيجانية والشعبية المتعاظمة التى اخذ تحظى بها وسط جماهير شعب الامامية مما أثار شكوك اسرة الالفية نحو نواياه الحقيقية ودفعها الى اتخاذ قرار بطرده نهائيا من اراضى فوتا جالون .

وفى الحقيقة يجب علينا فى هذا المقام ان نشير الى أن الحاج عمر كان شخصية لاتعرف المساومة أو الحلول الوسطى فى الأمور التى تؤمن بها وترى أنها الصواب لهذا كان احتكاك الحاج عمر بالحكام فى السودان الغربى امرا لايمكن تفاديه نظرا لحدة وصراحة الداعية التكرورى ولسطوة حكام تلك البلاد حينذاك .

بعد ان غادر منطقة فوتا جالون استقر الحاج عمر والمهاجرون معه عام ١٨٤٩م فى قرية دنجيرى التى تقع بين اعالى نهر النيجر والسنغال . وقد شبه مريدوه هذه الهجرة بهجرة الرسول صلى الله عليه وسلم من مكة الى المدينة . واعتبروها ايذانا بعهد جديد تنتشر فيه الطريقة التيجانية لتعم كافة انحاء بلاد السودان . ويشبه عليوتيام الاستقبال الحار الذى افرده سكان دنجيرى للحاج عمر وللمهاجرين معه باستقبال الانصار لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فى المدينة المنورة . لهذا شرع الحاج عمر منذ وصوله الى دنجيرى فى تحصين وتسوير القرية التى استأجرها من قبيلة الديالونكى كما بنى بها قلعة ضخمة رسم له خرطتها ساميا انديای الذى وفد عليه من سانت لويس وقد كانت تلك الفترة من حياة الحاج عمر حاسمة بالنسبة لتاريخ جهاده كرسها لعمل التحصينات الحربية والتدريب العسكرى والتسلح الحربى والايديولوجى لاتباعه الشىء الذى جعل من دنجيرى شبيهة بحصون المرابطين فى القرن الحادى عشر الميلادى .

وقد استطاع الحاج عمر ان يجتذب الكثيرين من شباب المنطقة . وما كان دافع عدد كبير منهم حب المغامرة والحرى وراء ماتدره غنائم الحروب من مكاسب . ولعل هذا مايفسر التضخم الشديد الذى عرفه جيش الحاج عمر الذى ارتفع عدد مقاتليه فى فترة وجيزة من الزمن الى عشرة آلاف مقاتل(٢٢). مسلحين بسبعمائة بندقية تم شراؤها من التجار الانجليز على الساحل . ومما لاشك فيه فان هذا السلاح النارى كان يمثل لحد كبير السر الذى يقف وراء الانتصارات الخاطفة التى كان يسجلها جيش الحاج عمر اثناء حروبه غير المتكافئة ضد الممالك السودانية التى كان يستخدم مقاتلوها حينذاك السلاح الأبيض .

بعد هذا الاستعداد العسكرى الهائل قبل الدخول الفعلى فى حروب الجهاد انقطع الحاج عمر فى خلوة تامة اعتزل خلالها الناس للعبادة والتأمل . وهى الفترة التى يخبرنا بانه تلقى ابانها التوجيه من الرسول صلى الله عليه وسلم فى الحادى والعشرين من ذى القعدة عام ١٢٦٨ الموافق السادس من سبتمبر ١٨٥٢م. بمحاربة الكفار نشراً للاسلام .

الحواشي

GOULLY"A":L'Islam Dans L' Afrique Occidental Francaise, (1952)P.72.
BNP; MNS ARABAS NO, (١)
(٢) يحدثنا سرى عباس صاحب مجموعة الاخبار التاريخية بأن الامام يوسف كان عالما لا يشق له غبار خاصة فى علوم الباطن .
MAGE: VOYAGE DANS LE SOUDAN OCCIDENTAL, P.231 – 232
Et. DELAFOSSE: HAUT SENEGAL NIGER (٣)
Dr. Omar Jah THE JIHAD OF ALHAJJ UMAR, (A NEW ASSEESSMENT), The Sokote Siminar (1975) (٤)
Omar A/Magid: L' Influence Politique Et Sociale de L' Islam au Soudan Occide ntal et Central 1804 – 1864, (These Inedite). (٥)
MAGE : VOYAGE DANS LE SOUDAN OCCIDENTAL, (٦)
Paris (1862). (٧)
PIBLIOTHEQUE NATIONALE PARIS:MAS ARABES, No. 5559 F 51. (٨)
(٩) .. وهذا شيء عادى لدى المتصوفة إذ أن كسر النفس واخذها بالشدة تنقية لها من دون العالم الارضى
TYIAM M. ALIOU : LA VIE D'EL HADJI OMAR, (١٠)
Qacida en poular, Trad. H. Paden, PII (١١)
Baetet Daget; L'empire Peul du MACINA, P24, see olso, ABU NASR: THE TIJANIYYA, OXFORD (1965) P. 108. (١٢)
HADJ SAID : TEDZKIRAT EN – NISIAN, (1899) P. (١٣)
BA "A.H" ET DEGET, Op. Cit. P. 245–246.
OMAR A/MAGID : L'INFLUENCE POLITIQUE ET SOCIALE DE L'ISLAM AU SOUDAN OCCIDENTAL ET CENTRAL (1804 – 1864)
LE CHATELIER : L' ISLAM DAN L'AFRIQUE OCCIDENTALE (١٦)
(1899). P. 169.
SAINT MARTIN, UN FILS D'ELHADJ OMAR: AGUIDO ROI DU DINGUIRAY ET DU MACINA. (١٧)
"Chaier D'Etudes Africaines"
(1968) Veol. VIII, P. 146.
MAGE. Op. Cit. P. 235. (١٨)
(١٩) المكتبة الوطنية بباريس الوثيقة العربية رقم ٥٧١٦ ، ص٦٦٠
YBER : L'Encyclopedie De L'Islam, t II, (1972) Article; Elhadj Omar.(٢٠)
Omar A/Magid; These Inedite. (٢١)
TYAM : OP. Cit P. 26. (٢٢)
SAINT MARTIN : A Mabadist Document From Fouta Djallon, IFAN (1963). (٢٣)
MARTIN G.M, A MAHADIST Document From Fouta Djallon IFAN(1963).
See olso, (٢٤)
ABU – NASR "J", OP. CIT. P. 112.